نجم البداية
في شرح الخفايا

إعداد

مايكل يوسف سلوانس

* مقدمة :

إن هذا الكتيب هو ثمرة فكر فيلسوف عربي يُدعي ابن خلدون . وهذا الفيلسوف يتسم بالترتيب المنطقي لأفكاره ، كما يتميز بقدرته علي فن الإقناع . ونحن قد أيقنا ذلك حينما قرأنا كتابه " مُقدمة ابن خلدون" . وفي إعتقادي الشخصي أن ابن خلدون سمي كتابه بالمقدمة ، نظراً لأنه يشرح بعض الأشياء وبدايتها . وفي هذا الكتيب سوف نبدأ ببداية العمران البشري ، كما بدأ فيلسوف العرب ابن خلدون ، وهذا حتماً سيقودنا إلى الدولة والسياسة ، وبعد ذلك سنتأمل طبيعة الإنسان والملائكة ، ثم نقوم بعمل مُقارنة بينهما وبين معرفتهم أيضا . وهذا الأمر يجعلنا نتطرق إلى قضية معرفة الغيب ، تلك القضية التي تقودنا إلى عدة مواضيع هامة مخُتلفة تجعلنا نتناقش فيها ، لنصل في النهاية إلى عدة حقائق هامة وضعناها في الخاتمة .

"الفصل الأول"

* العمران البشري :

يقول الحكماء : " إن الإنسان مدني بالطبع " . أي لابد له من الإجتماع ، وكلمة مدني مأخوذة من كلمة مدنية وهي تصغير لكلمة مدينة . والمدينة تعني العمران وبيانه .

فالله سبحانه خلق الإنسان علي نظام وصورة معينة فلا يستطيع أن يحيا إنسان دون غذاء . ولهذا فقد جعل الله لكل إنسان قدرة وطاقة ، حتي يستطيع أن يأتي بغذاؤه . فإذا فرضنا أقل ما يمكن فرضه مثلا ، وهو قوت يوم من الحنطة " ويقصد بها حبة البركة " . فلا يستطيع أن يأكلها الإنسان إلا بعد أن تطحن ثم تعجن وتُطبخ . وكل واحد من هذه الأعمال السابقة تحتاج إلي أواني ومواعين وطواجن ، وطبعا هذه الأواني لا تتم إلا بصناعات مُتعددة ، كما يحتاج إلي أعمال أخري غير هذه مثل أعمال الزراعة والحصاد والدارس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل . وكل واحد من هذه الأعمال يحتاج إلي آلات كثيرة وإناس كثيرين أيضا ويستحيل لإنسان واحد أن يفعل كل هذا ، نظرا لأن قوته العضلية لا تساعده في ذلك ، وإذا فرضنا أن قوته العضلية ساعدته فكم يستغرق إذن من الوقت ؟ حتي يحصل علي غذاؤه . إنه حتما سيموت جوعا قبل أن يأكل .

ومن هنا كان لابد من إجتماع الكثير من قدرات البشر ليحصل الواحد منهم علي القوت لأجل نفسه وللآخرين أيضا. فبالتعاون يحدث قدر الإكتفاء من الحاجة . كما أن إجتماع البشر يفيد في الدفاع عن النفس ، لأن هذا يقتضي إستعانة الإنسان بأبناء جنسه .

* الدولة :

ولما كثر البشر ، كثرت المُدن ولما كثرت المُدن أصبحت هناك دول . وهذا الأمر كان يقتضي وجود سياسة " نظام " يحكم هذه الدول . وهذا ما ذكره لنا أرسطو في كتابه السياسة حيث قال : " أن العالم بستان سياقه الدولة ، والدولة سلطان تحيا به السنة . السنة سياسة يسوسها الملك . الملك نظام يعضده الجُند . الجند أعوان يكلفهم المال ، المال رزق تجمعه الرعية ، الرعية عبيد يكنفهم العدل ، العدل مألوف وبه قوائم العالم ، والعالم بستان .... " .

وإذا سلمنا بوجود الدولة ، فينبغي أن يكون لهذه الدولة أعمار طبيعية كما للأشخاص ، فإذا كان العمر الطبيعي للأشخاص كما يزعم الأطباء ١٢٠سنة . ولايزيد عن ذلك إلا في أوضاع نادرة جدا . ولكنه قد يختلف في كل جيل ، فقد تجد أن هناك بعض الأشخاص أعمارهم ١٠٠سنة ، وبعضهم ٥٠ أو ٧٠ أو ٨٠ إلا وأن الأمر الطبيعي أي متوسط عمر الإنسان مابين ٦٠ والي ٧٠ سنة. وإذا كانت الأعمار تختلف إلا وأن الدولة في الغالب لا تتعدي عمر ثلاثة أجيال ، فالجيل هو العمر المتوسط للشخص الواحد .حيث يبلغ حوالي ٤٠ سنة ، ولعل ما يؤيد كلامي هذا ما جاء في التوراة " كتاب العهد القديم " في قصة بني إسرائيل . فكان القصد بالأربعين سنة هو فناء جيل الأحياء ونشأت جيل آخر . ولهذا يجري علي ألسنة الناس في أغلب الأحوال أن عمر الدولة ١٠٠سنة.

"الفصل الثاني"

* طبيعة ومعرفة علم البشر والملائكة :

من المعروف والجدير بالذكر أن هناك ثلاثة عوالم موجودة في هذا الكون وهما :

١- عالم الحس .
٢- عالم الفكر .
٣- عالم الملائكة .

١- عالم الحس . وفيه قد شاركنا الحيوانات بالإدراك ، وأيضا بوظائف الجسم البيلوجية من طعام وشراب وعملية إخراج وغير ذلك .

٢- عالم الفكر . الذي أختص به البشر ، وتميز به عن الحيوانات لأنه فوق إدراك الحس الحيواني . فالحوادث الفعلية لا تتم إلا بواسطة الفكر . فنحن نعلم جيدا أن عالم الكائنات قد يشمل علي الإنسان والحيوان والنبات . وقد تصدر من هذه الكائنات أفعال غير منتظمة ولا مرتبة وهي أفعال الحيوانات ، كما تصدر أيضا أفعال منتظمة ومرتبة وهي أفعال البشر ، فمثلا لو فكر الإنسان في إيجاد سقف ، فقد يمكنه أن ينتقل بذهنه إلي الحائط الذي يدُعم ويسند هذا السقف ، ثم الأساس الذي يقف عليه هذا الحائط وهو آخر فكرة ، لكن عندما يبدأ في العمل يبدأ بالأساس ثم بالحائط ثم بالسقف الذي هو آخر العمل وهذا معني القول القائل : " أن أول العمل آخر الفكرة ، وأول الفكرة آخر العمل " . فلا يتم فعل الإنسان في الخارج أي في هذا العالم المادي ، إلا بفكرة

قد تكون تكونت له في الداخل أي في داخله ، حتي إذا بدأ العمل يشرع في فعلها .

بينما نلاحظ أن الأفعال الحيوانية لدي الحيوانات ليس فيها إنتظام ، وذلك لعدم الفكر الذي يُعين الفاعل علي الترتيب فيما سوف يعمل . إذ أن الحيوانات قد تدرك بالحواس فقط وكل مدركاتها خالية من ترابط الأفكار وترتيبها . إذ أنها لا تملك الفكر . ومن هنا كانت الحيوانات مُسخرة للبشر ونستنتج من هذا أن علم البشر هو علم مكتسب ، حيث يقع دائما بين النفي والإثبات وربما أِوضحها البرهان الصناعي ، ولكنه من وراء الحجاب وليس كالمعاينة التي نجدها في علوم ومعرفة الملائكة .

٣- عالم الملائكة والأرواح . هو عالم فوق عالمنا هذا ، وقد نستدل علي هذا العالم الروحاني بالأحلام وأحيانا بالرؤي ، وما يلقي إلينا في النوم من الأمور التي قد نكون في غفلة عنها أثناء اليقظة . وهذه الأمور نجدها تطابق الواقع ، وعندها نعلم أنها صحيحة . إذ إنها آتية من عالم كله حق . ولا نجد برهانا أوضح من هذا علي وجود ذلك العالم الروحاني الذي لا يستطيع أن نتكلم عنه أكثر من هذا ، ولم يعد يبقي لنا ، ولم يعد يبقي لنا سوي ما نقتبسه من الدين .... فالملائكة هي أرواح مُجردة من الجسمانية والمادة وكأن حقيقة ذاتها الإدراك والتعقل ، فعلوم الملائكة لا يقع فيها خلل البتة ، بعكس علوم البشر التي قد تكون صحيحة أو خاطئة أحيانا . وعليه نستنتج أن هذا الجسد الإنساني هو الذي يعرض الإنسان للخطأ في علومه . ولذا فإن أعقد هذه العوالم في وجهة نظري هو عالم البشر ، إذ أنه يشارك الحيوانات في المدارك الجسمانية ، كما يشارك الملائكة في طبيعة المدارك الروحانية .

"الفصل الثالث"

* قضية معرفة الغيب :

إن قضية معرفة الغيب هذه قد تقودنا إلي مواضيع كثيرة ، وأمور ينبغي لنا أن نعرفها ، حتي تتكون لنا صورة صحيحة نحو هذا الموضوع . ولذا سوف نتعرض إلي كل ما يختص بالغيب ومعرفة المستقبل المجهول ، فالإنسان بطبيعته يريد أن يتطلع دائما إلي الغيب ، فحب الإستطلاع والبحث عن كل ما هو خفي من شئون حياته المستقبلية يدفعه إلي ذلك .

ومن هذا المنطلق كان ينبغي علينا أن نصنف النفوس البشرية إلي ثلاثة أصناف حسب رتبهم من المتدني إلي الأرقي وهما :

١- السحرة والكهانة والمنجمون والرمالة .
٢- رجال الدين .
٣- الأنبياء .

١- السحرة . وهم صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلي معرفة الغيب ، فيتوجه إلي الجهة السفلي نحو تركيب المعاني القاصرة علي قوانين ليس لها أي إثبات . ومن هنا جاءت علوم السحر والطلسمات ، وهي علوم تأثر بها نفس الساحر علي التأثيرات في عالم العناصر إما بغير مُعين أو بمُعين من الأمور السماوية مثل الكواكب والنجوم . ولذا فإن النفوس الساحرة علي ثلاثة مراتب فأولها المؤثرة بالكلام فقط من غير آلة ولا مُعين . وهذا هو السحر ، والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسم . وهو أضعف رتبة من الأول ، والثالث تأثير في القوي المتخيلة . فقد يؤثر الساحر في المسحور بنفسه . فينظر المسحور هذه الخيالات وكأنها في الخارج وليس هناك

شيء من ذلك ، وكأنه يري وحشا مثلا يهجم عليه ، ولكن لا يوجد هناك شيئا من هذا .
ولقد فرق الفلاسفة بين السحر والطلسمات ، وذلك بأن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلي مُعين ، بينما أن صاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر ، وهذا ما يقوله المنجمون " أن السحر إتحاد روح بروح والطلسم إتحاد روح بجسم " .
ومعناه عندهم هو الربط بين الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية ، والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة . بينما الطبائع السفلية هي أرواح ملوك الجان السبعة ولذلك يستعين بالغالب إلي العزائم .
ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الدين لما فيها من الضرر ولما فيها من كفر وإستعانة بالشياطين من دون الإستعانة بالله . فكانت كُتبها مفقودة بين أيدي الناس .
وعموماً فالسحر لا يستطيع أن يؤثر في إنسان قريب من الله.
ويبقي سؤالاً واحداً في هذا الموضوع ألا وهو ما الفرق بين المُعجزة والسحر ؟

*** الفرق بين المعجزة والسحر :**

هو أن المعجزة قوة إلهية تبعث علي النفس ذلك التأثير الإلهي . فهي مؤيدة بروح الله علي فعل ذلك . كما أن المعجزة تكون موجودة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير ، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر . ولا يستعمل عجائبه التي هي من عجائب الله في أسباب الشر . لأن الله إله خير لا شر . كما نلاحظ أن المعجزة تأتي عن إحتياج .

وأما السحر فيأتي في كل الأوقات ، ويفعله الساحر بقوته النفسانية وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال . والسحر يكون لصاحب الشر ويستعمل في أفعال الشر . كالتفريق بين الزوجين وضرر الأعداء . فالساحر لا يصدر منه خيرا . وكأن السحر والمعجزة علي طرفي النقيض في أصل فطرتهما .

*** الكهانة :**

وهي إستعداد النفس البشرية لإدراك الغيب ، ولكون هذه النفوس مفطورة علي النقص عن الكمال ، كان إدراكها في الجزيئات أكثر من الكليات ، ولا تصل هذه النفس إلي الكمال أبدا لأن وحيها من وحي الشيطان . لأن النفس الكاهنة تدرك بواسطة الآلآت فيرتفع حجاب البدن لحظة ثم ينسدل مرة أخري ، ولذا نجد أن هذه الطائفة من الناس ينظرون إلي الأجسام الشفافة وعظام الحيوانات حتي يستطيع الناظر أن يرفع حجابه الحسي ليدر الغيب .

*** المنجمون :**

وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدارك ومعرفة للغيب دون غيبة عن الحس ، وهؤلاء القوم هم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضي أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر ، وهؤلاء المنجمون ليسوا يعلمون من الغيب شيئا أبداً ، وإنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية علي التأثيرات النجومية . ولا أجد ما أقوله في هذا القبيل سوي المثل القائل " كذبوا المنجمون ولو حتي صدقوا " .

* الرمالة :

ومن هؤلاء قوم من العامة استخرجوا الغيب من صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم . وفكرة هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا وكأنها البروج الأثني عشر في الفلك ، وأستخرجوا من ذلك فناً قد حاذوا به علي فن النجامة . والحقيقة التي لابد وأن تكون راسخة في ذهنك دائما هو أنه لا يمكن أبدا إدراك الغيب بواسطة صناعة البتة ، ولا طريق لمعرفة الغيب إلا للبشر المفطورين علي ذلك ، ومن هؤلاء البشر رجال الدين والأنبياء .

٢- رجال الدين :

وهم صنفاً من البشر متوجه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحاني وقد يتم الإدراك عندهم دون أي ألآت ، فالله جعل فيهم إستعداداً لذلك ، حيث يتسع نطاق إدراك رجل الدين ويسرح ويتِأمل في فضاء المشاهدات التي لها بداية وليس لا مُنتهي . حقاً أن هذه مدارك أهل العلوم الدينية ، والمعارف الربانية التي تحدث للإنسان في حياة ما بعد الموت .

والعالم أبو الغرائب ، فقد يتم معرفة الغيب لرجال الدين بواسطة خاصية موجودة في الإنسان وهي النوم ، ففي النوم تكون النفس والمخيلة قوية ، ويؤدي ذلك إلي إدراك ما ، فتقتبس النفس من تلك الصور علوماً ثم يقوم الحس بمراجعة هذه الصور ، فيتكون إنطباع داخلي لدي الإنسان . وهذا هو شرح إستعداد النفس للإدراك الغيبي. فقد تنسلخ بالكلية من الطبيعة البشرية إلي الطبيعة الملائكية الروحانية التي توجد في الأفق الأعلي في السموات ، تنسلخ ليس عن صناعة ما ، وإنما بما جعل الله فيها من فطرتها الأولي .

* الأحلام والرؤي :

إن الأحلام موجودة في صنف البشر علي الإطلاق ، ولابد من تعبيرها . فلقد كان يوسف الصديق يفسر الأحلام . بينما نجد أن حقيقة الرؤيا هي مطالعة النفس بالأسرار الغيبية . ففي الرؤيا تتجرد النفس عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، وهذا قد يحدث أثناء النوم ، حيث تقتبس النفس ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلية ، ثم تعود به إلي مداركها فإذا كان هذا الإقتباس قوي يتكون إنطباع لدي الإنسان الرائي ، أما إذا كان الإقتباس ضعيفاً فقد يكون حلماً ، وهذا يحتاج إلي التفسير والتعبير . والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس هو أن ذاتها روحانية بالقوة . إلا أن روحانيتها هذه قد تختلف عن روحانية الملائكة أهل الأفق الأعلي " السماء " فهذا الإستعداد حاصل لهم علي الدوام ، بينما في عالم البشر يحدث هذا الإستعداد للإنسان في فترات مُعينة ، وبقصد مُعين من الله سبحانه . ولعل السبب في تلك الموانع والعوائق الكثيرة التي تعوق حدوث الإستعداد هي تلك الحواس الخمسة الظاهرة لدي الإنسان ، فلقد فطر الله البشر منذ ولادتهم علي إرتفاع حجاب الحواس بالنوم ، حيث تتعرض النفس عند إرتفاعه إلي معرفة ما تتشوق لرؤيته في عالم الملائكة والحق ، فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة ، يكون فيها القصد والمطلوب . وأما سبب إرتفاع حجاب الحس بالنوم هو أن النفس الناطق إنما يتم إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني ، كما تدرك أيضاً بواسطة العقل الباطن . ولما فشلت الحواس الظاهرة الجسمانية في عملية الإدراك ، نظراً لما يدركها من تعب اليوم ، وجب عليها أن تستريح في الليل وذلك من خلال النوم . الأمر الذي يجعل الباب مفتوحاً والطريق رحباً وواسعاً أمام العقل الباطن الذي إنتهز فرصة

إنخاس الروح الحيواني " أي الحواس الظاهرة " ، فلا يجد أمامه سوي الإدراك والحس بالباطن ، وعندها يُخفي عن النفس شواغل الحس وموانعه ، وحينئذ تكون الذات الإنسانية نقية تدرك الروحية التي هي مفطورة عليها منذ بدايتها الكونية ، ثم يقوم الحس " الشعور" المشترك بتنزيلها إلي الحواس الظاهرة الخمسة ، وعندئذ يدركها الإنسان . وهذا هو شرح ما يحدث للبشر في أمر الأحلام والرؤي.

٣- الأنبياء والوحي :

كما نري أيضاً صنفاً مقصور علي الإنسلاخ من الطبيعة البشرية إلي الطبيعة الملائكية ، ليصير في لمحة من اللمحات ملاكاً بالفعل فيسمع الكلام الروحي والخطاب الإلهي في تلك اللمحة وهي حالة الوحي التي تشبه حالة النوم إلا وأن درجة النوم أقل بكثير منها ، فالوحي فطرة فطر الله الأنبياء عليها ، حيث نزههم عن موانع البدن ، وركز في طبائعهم رغبة في العبادة والذكر لله ، فتجدهم مسرورين من هذه الأحوال الربانية . وعندما يأتي الوحي إليهم ويتكلم معهم ويمضي ، ويرجع الأنبياء لمداركهم البشرية ، فإنهم يفهمون ما قد ألقي عليهم من خطاب روحي . وعندها يشر النبي من هؤلاء الأنبياء أن ما حدث له إنما قد حدث في لحظة واحدة . بل هو أشبه وأقرب ما يكون من لمح البصر ، لأنه ليس هناك وجوداً للزمان . فيبدو له كأنها لحظة سريعة جداً. ولذلك سُميت وحياً ، لأن الوحي في اللغة العربية يُعني الإسراع .

وجميع الأنبياء كانوا مفطورين علي هذا الوحي ، ولذا نجد أن معرفتهم في تلك الحالة معرفة علم وشهادة عيان وحق ، فلا يلحقها خطأ أو ذلل ولا يقع فيها الوهم ، إذ أنها معرفة إلهية ربانية لا تعتمد علي الخاطر والإجتهادات كما هو الحال بالنسبة لسائر البشر ، وإنما تعتمد علي الصدق والحق.

* خاتمة :

وبعدما قرأنا كتاب فيلسوف العرب ابن خلدون استنتجنا العديد من الحقائق والأمور الهامة ، ولعل أهمها ما يلي :

١- أن الإنسان مدني بطبيعته .

٢- قد لا تتم معرفة الغيب بالسحر أو بأي صناعة أخري ، وإنما تأتي معرفة الغيب لرجال الدين وذلك بقصد من الله ، كما تأتي للأنبياء إذ أن الحكمة البشرية تقتضي ذلك ، حتي يبلغ كل نبي قومه بالكلام الذي كلمه الله به ، حتي يعمل به قومه ، فيرضي الله عليهم ، إذ أنهم أطاعوه .

٣- أن الحلم لعامة البشر والرؤي لرجال الدين والوحي للأنبياء.

٤- أن المُعجزة مؤيدة بروح الله ، وأما السحر فمؤيد بروح الشيطان.

٥- يستطيع أن يرتفع الإنسان حجابه الحسي الذي يعوقه عن عالم الروحيات وذلك بالصوم والصلاة والذكر الدائم لله .

الفهرس

المقدمة ٢
الفصل الأول " العمران البشري " ٣
الدولة ٤
الفصل الثاني" طبيعة البشر والملائكة " ٥
الفصل الثالث " في قضية معرفة الغيب " ٧
السحرة ٧
الفرق بين المعجزة والسحر ٨
الكهانة ٩
المنجمون ٩
الرمالة ١٠
رجال الدين ١٠
الأحلام والرؤي ١١
الأنبياء والوحي ١٢
خاتمة ١٣